

# خلف القضاة

## قصص

يقدم محمد القاص

(( قد يحقق الصمت البناء ما لا تحقته الخطب الجوفاء ))

هذه البؤرة العفنة .. يجب ان تقوم بشيء لتنظمتهم .. لقد علمت اشياء بجهلها رفاك .. بجهلها السجن الذي يدفعك بقوة نحو الزنزانة الباردة .. تجهلها الزنزانة الباردة ، تجهلها القضبان الحديدية التي طالما اطلت من ورائها لتشهد مصرع رقيق من رفاك في بحيرة الدم الطاهر .. فاسم .. ابو يوسف .. الحلاق .. ادريس .. المعلم الذي كان يلقن ابنك دروسا ابتدائية ..

ابنك ، انك لا تعرف عنه شيئاً الا انه انضم الى الثوار من اجل القضية العادلة .. « اهنتك يا ابني » .

السجان يرميك داخل الزنزانة .. نسجل يومك الاول بعد ثلاثة اشهر .. قطعة الفحم تنسل من بين اصابعك .. يخافون حتى من اصابعك .. الدم ما يزال ينهمر من انفك ، من ذنك .. من بين اصابعك .. من اعلى حاجبيك .. وانت نجر قدميك لتلحق بالقضبان . انه يوم ((عادل)) .. انهم يجرونه نحو بحيرة الدم الطاهر .. ابتسامته المعهودة لا تفارق شفثيه .. « يظهر انه التجأ الى الصمت .. لا لم يقل شيئاً .. سيقتلونك كما سيقتلونك غدا او بعد غد .. او اليوم .. من يدري ، انهم لا يقررون اليوم ولا الساعة .. يفتلون على غير موعد .. كما يقدمون لنا الفئات الوسخ على غير موعد .

تضم وجهك بين راحتي يديك .. هدير الرصاص يثقب اذنيك .. عادل يخر صريعا كصغفور ملون بالاحمر والاسود .. يعودون ولما يزل الجوع والظما الى المزيد يسيل من اذنانهم النتنه .. لا يهم .. غدا .. او بعد غد .. انك تقرأ شيئاً في عيونهم .. كل يوم تكتشف جديداً .. نقرأه في عيونهم .. السجن .. الجنود .. الضابط الذي يقوم بعملية الاستنطاق .. الخنزير الذي يركلك في المكان المألوف وصاحب الجثة الضخمة الذي يقدم لك فئات المائدة القذرة ..

– الرقم السبعة بعد الالف

لا ترد ، فواك تخونك .. بدخل السجن .. برفك بوحشية .. يدفعك بقوة نحو الخارج (( آن الاوان ولم نفعل شيئاً )) الخنزير ما يزال يدفعك .. الدم يتدفق .. يسيل من فمك .. من بين اصابعك .. من أنفك .. من اعلى حاجبيك .. عيناك لا تبصران الطريق .. قطرات الدم تنسلل اليهما من اعلى حاجبيك .

– هل تعرف هؤلاء ؟

– ماذا ؟ ابني هنا ..

– انهم فلسطينيون .. عرب مثلي .. فقط

– كلاب .. كلهم كلاب ..

الخطوط الفحمية سجل شهرك الثالث داخل جدران السجن الاربعة الضيقة .. هذه الخطوط التي كنت ترسمها كلما مر عليك يوم في هذا الكهف المظلم آملاً ان نخرج منه في يوم لنقول لرفاك فسي الميدان ، لقد تعلمت اشياء كثيرة في زنزانك .. اشياء جديدة لم يكن تعرفها من قبل .. ليس السجن فقط تلاجة لهذه الاسماك الادمية التي اقتربت ذنبا ما .. السجن رحلة .. مدرسة .. كتاب ..

ذهبت طعم السم والمرارة والرتابة والالم .. تعودت ان تضرب ، ان يبصق عليك .. ان بداس بحذاء عسكري صلد .. تعودت رؤية هذه الملامح الجامدة التي تزورك في اوقات غير معهودة خلقت في داخلك نوعاً من خيبة امل ..

– الرقم السبعة بعد الالف

وتخرج ، شيء في داخلك يحذرك بان لا جديسد ينتظرك .. الاستنطاق كالمادة ..

– كم هم رفاك ؟

وتبصق عليه بابتسامة ذات دلالة (( دون جدوى تسألني ايها الفار .. رفاقي لا يعدون ))

– في اية منظمة ؟

وقبل ان يتم جعلته فرف من بين الشارب واللحية المهملة ابتسامتك الساخرة (( فتح .. الصاعقة .. انا انتسب الى كل منظمة ايها الفار .. وانت تدري كل ذلك .. لن تسمع لفظه مني ))

– في اي مكان يختبئون ؟

(( في كل مكان .. في الزنزانة .. في منزلك .. في كل مكان .. ابحت عنهم بنفسك اللامبالاة تقتل في داخله الامل .. بحبي في داخلك الامل .. يكشر عن انيابه .. ينتم

.. لا تريد .. حسناً .. الى المكان المألوف

هذه الردهة النتنه اصبحت مألوفة ببرودنها .. بقاذوراتها ، بهذه الايدي التي تدفك بوحشية نحو المكان المألوف .

سوف يسيل الدم من فمك .. من انفك .. من جبهتك .. من حاجبيك .. سوف يسيل الدم .. لا يهم .. وسوف تعود الى زنزانتك تن ، مكسر الجبين ، منتفخ الوجه ، لا تستطيع السير .. لن تنام هذه الليلة وغدا .. او قد تنام نومة ابدية ، لا بهم .. الرفاق يعلمون انك هنا مفيد .. ربما خلقت في افقهم بومة الخوف .. الخوف من ان تقول شيئاً ، ربما يجب ان تزول .. (( ربما )) هذه .. يجب ان يعلموا انك لن تقول شيئاً .. انك لا تخاف التعذيب .. لا تخاف الموت في

(( الكلب انقى من جدك الفار )) ..

تبادلان النظرات .. بنسبم .. (( اهنتك يا ابني )) .. (( اهنتك يا ابني )) .. كل الرفاق يحيونك .. لقد حل محلك سعيد وهو يسمو بالعمليات الفدائية التي خططنا لها .. بالامس دفن لهما بنفسه قرب فاعة سينما .. وانفجر .. مات عدد كبير من الخنازير .. نشير اشارة ذات معنى .. (( لا انهم لا يخافون من ان نفضح العملية التي ستتم غدا .. انهم يعرفونك تمام المعرفة لقد فالوا لي كل شيء عنك قبل ان يقبضوا عليك وانت تقوم بمحاولة وضع لقم في مستودع السيارات المصفحة .. انك فائد ممتاز .. لم اكن اعرف ذلك من قبل .. اهنتك يا ابني )) ..

– هؤلاء لا يتكلمون .. ولا يريدون .. حسنا .. الى المكان المألوف .. اما هذا العنيد فلقد ذاق ما فيه الكفاية .. اعيدوه الى زنزانته سوف نزهق روحه غدا او بعد غد .. اضربوهم جيدا كي يعرفوا قيمة الصمت ..

ورمي بنظرة ذات معنى نحو ابنك الصغير .. (( لا لن اقول شيئا )) (( اهنتك يا ابني )) .. (( الصمت .. الصمت .. الكلاب يفتلهم الصمت .. يدفعك السجن بقوة .. نحس بتعب والتم شديدتين .. الدم ما يزال ينهمر من انفك من فمك .. من بين اصابعك .. من أعلى حاجبيك .. لا يهم .. وجهك الملون بالاحمر يرسم ابتسامة التفاؤل ((اهنتكم يا رفاقي .. اهنتك يا ابني .. غدا ستتم العملية التي خططنا لها شهورا عديدة .. سوف يعرف الاعداء فوننا .. معنوياتنا .. تاكدوا ان ابني ايضا لن يقول شيئا .. تاكدوا قرأ ذلك في عينيه الخمريتين .. حتى الاخرون .. تاكدوا لن يقولوا شيئا .. اسمع صيحات اناتهم من هنا .. التعذيب شرف تاكدوا ..

وتنقطع الصيحات .. اصوات وقع اقدام تعترب ..

– أين سنضع هذا الصبي الاحمق .. ليس هناك مكان فارغ .. – ضعه مع الرفم السبعة بعد الالف .. سوف تزهق روحه غدا او بعد غد ..

يفتح الباب .. ويغذف بابنك نحو الداخل .. الدم يتدفق من منحيه .. من ثيابه الممزقة .. من نضمه بين ذراعيك .. تطبع قبلة على جبينه اودعت فيها كل حنان الاب والقائد .. فطرة دم تسللت الى جبينه من فمك ..

– عذوبك كثيرا يا ابني ..

– لا يهم .. التعذيب شرف .. آه .. كيف حال الرفاق ..

البحروف تندفق من فمه .. ذاكرتك لا تعي شيئا .. زوجتك في الخيام .. قتل بعض من اعز اصدقائك .. المقال الذي كان يسكن بجوارنا .. تهدم بيتنا .. قوات الصاعقة .. فتح .. السيارات المصفحة .. نحطيم .. قتل الخنازير

– حسنا .. آه .. أشعر بدوار في رأسي .. في اي ساعة

ستتم العملية ..

– غدا .. الساعة الثالثة صباحا

الدم ما يزال يتدفق .. يسيل من انفك .. من فمك .. من شفتيك .. من بين اصابعك .. من أعلى حاجبيك .. من .. ابنك يضمه جراحاتك بقميصه الممزق ..

– عذوبك كثيرا يا ابني ..

– لا يهم .. لا جدوى .. قواي تخونني .. ان مواعيدي قريب لا يهم .. يجب ان نتعلم من السجن ما يلفنك .. السجن مدرسة .. كتاب .. رحلة لا بد منها ، لا خوف منها .. لقد تعلمت اشياء كثيرة .. اشياء جديدة لم اعرفها من قبل حتى في ميدان البطولة .. يجب ان نقول كل شيء للرفاق .. ان لا يخافوا من السجن .. من التعذيب .. من الرصاص .. من بركة الدم .. يجب ان لا يخافوا .. ان يصمتوا .. ان يعملوا تحت ستار الصمت .. الصمت يقتل الكلاب .. اللامبالاة تقتل الكلاب الكلاب المسعورة .. انهم يخافون منا .. يجب ان يعلموا

هذا .. الفئران تخاف منا .. تق بي .. اني قرأت ذلك في عيونهم .. السجان والضابط والخنزير .. وصاحب الجثة الضخمة ، يخافون من اصابعنا .. من ابتسامتنا .. من صممتنا .. يخافون لاننا لا نخاف .. يجب ان نقول كل شيء للرفاق .. بالامس .. وقبل الامس قرأت ذلك في عيونهم .. صدفتي .. تق بي .. يجب ان نقول كل شيء للرفاق .. اني لم اقل شيئا .. لن نقول شيئا .. لن يقول احد منا شيئا .. يجب .. انهم يعرفون اننا نصمت لا نبالي .. نموت .. نداس بحذاء عسكري صلد من اجل المصير .. مصيرنا الشريف من اجل فضية مشروعة عادلة .. صدفتي .. قرأت في عيونهم التعجب .. الخيانة .. الكلاب .. انهم يخونون انفسهم صدفتي .. قرأت ذلك في عينيه .. الضابط الذي يقوم بعملية الاستنطاق .. صاحب الجثة .. الخنزير .. الجنود صدفتي .. انهم يخافون من صممتنا .. من لا مبالانا .. من موتنا .. من ابتسامانا .. من اصابعنا .. من .. انهم يدعون .. ويعرفون انهم فقط يدعون .. هل ، هل تسمعني ؟ فقط يدعون .. يجب ان نقول كل شيء للرفاق .. انهم يخافون من موتنا ..

الدم يتدفق .. يسيل من أعلى حاجبيك .. من شفتيك .. من اصابعك .. من قواك تخونك اكثر .. (( احس بدوار في رأسي .. لا يهم .. يجب ان نقول كل شيء لرفاقك .. – الرفم السبعة بعد الالف ..

الصمت .. عيناك تبصران اشباحا يدخلون .. نحس بسواعدهم تجر نحو الخارج .. صيحات ابنك في الاعماق تسمعها هناك فسي الاعماق ..

(( التعذيب كالموت شرف )) .. انهم يخافون من موتنا ، يجب ان نقول كل شيء للرفاق ..

الرصاصة يثقب ظهرك .. تسقط .. الوان زرقاء باردة تسدور ببرودة داخل راسك .. وددت لو انك عدت الى ابنك لتقول له ان الموت حلو .. وددت لو نستطيع ليصدقك .. لم يبصر هذه الابتسامة التي ارتسمت على جراحات محياك .. لا شك انه ينظر من خلال القضبان ويضم وجهه بين راحتي يديه .. وددت لو نستطيع ان نرغمه ليبصر كم هو لذيق هذا الموت الذي يخافونه ..

محمد القصاص

كلية الآداب (فاس)

صدر حديثا

لغة الابراج الطينية

للشاعر

حميد سعيد

منشورات دار الآداب